أحمد بن ماجد

أسد البحار

مشاهير العرب

(٨)

أحمد بن ماجد

أسد البحار

بقلم: فوزي خضر



تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

إشـــارة :

أحمد بن ماجد الملاح ، اسم مضىء فى الحضارة العربية ، حين كتب الآخرون تواريخهم فى صفحات الكتب ، كتب تاريخه على صفحات البحار ، كانت الأمواج سطورًا ، ومقدمة سفينته قلمًا خط به أروع الصفحات ، عشق البحر عشقًا تملك عليه كل مشاعره ، فتفنن فى علاقته به ، حتى أنه كان يكتب عن البحر فى الفترات التى قضاها فى البر ، فألف أكثر من ثلاثين كتابًا ، بعضها ألفه شعرًا وبعضها ألفه نثرًا ، فكان أول عالم فى تاريخ البشرية يبتدع علوم البحار ، واستخدم كل إمكاناته حتى يهتدى فى إبحاره ، فرسم الخرائط الملاحية ، واخترع الآلات الفلكية والبحرية ، وهداه تفكيره النقىّ إلى اختراع البوصلة البحرية ، التى مازال البحارة يستخدمونها إلى يومنا هذا ، منذ أن اخترعها منذ أكثر من خمسمائة عام .

ولأحمد بن ماجد ألقاب كثيرة ، فهو الملاح ، وأسد البحار ، وليث الليوث ، وشهاب الدنيا والدين ، وحاج الحرمين الشريفين ، وناظم القبلتين ، والمعلّم العربىّ ، ورئيس علم البحر وفاضله ، وأستاذ هذا الفن وكامله ، ورابع ثلاثة من المعالمة المشهورين فى البحر وهم محمد بن شاذان ، وسهل بن أبان ، وليث بن كهلان .

وقد ظهر ربابنة مشهورون على امتداد التاريخ العربى قبل أحمد بن ماجد أولهم محمد بن شعبان الأزدى اليمنى ، ثم محمد بن أحيحة بن

الحاج الأوسى ، ثم محمد بن مسلمة الأنصارى ، الذى عاصر رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ، ثم خواشير بن يوسف بن صلاح الأركى فى القرن الرابع الهجرى ، ثم أحمد بن محمد المغيرى .

لكن كل هؤلاء الربابنة كانوا خبراء فى الملاحة الساحلية ، أما الخبراء فى الملاحة فى البحر الطليق فكانوا المعالمة الثلاثة المشهورين ابن شاذان ، وابن أبان ، وابن كهلان ، ولكن خبرتهم كانت محدودة أيضًا ، لأنهم لم يبحروا إلا من سيراف على الخليج الفارسى إلى بر مكران على ساحل السند ، فى حين أبحر ابن ماجد فى المسافة من إفريقية إلى الهند ، فكتب على صفحات البحار والمحيطات تاريخًا ملاحيًّا مشرقًا ، جعل راية الملاحة العربية أعلى من كل الرايات وسجل اسم أحمد بن ماجد بحروف من نور فى تاريخ علوم البحار ، وفى تاريخ الملاحة العالمية .

وقد ظلت لأحمد بن ماجد مكانته فى الملاحة العربية ، لدرجة أن البحارة فى ميناء عدن ظلوا حتى القرن العشرين يقرءون له الفاتحة كلما صعدوا إلى ظهور سفنهم ليبحروا بها ، وليست مكانته مقصورة على العرب وحدهم ، بل تعدت ذلك فنال شهرة عالمية ، حين قاد سفينة الملاح البرتغالى الشهير فاسكو دا جاما من شاطىء كينيا إلى السواحل الهندية ، وسجل التاريخ لأحمد بن ماجد أنه كان الربان الوحيد الذى يمكنه الإبحار بسفينته إلى سواحل الهند فى ذلك الوقت ، فى حين كانت تتحطم جميع السفن الأخرى فلا تكمل رحلتها .

إن أحمد بن ماجد وسام متلألىء على صدر البحرية العربية ، حقق للملاحة العالمية ما لم يحققه غيره حتى زمانه ، وهو الرائد الأول لعلوم البحار ، بهديه اهتدى الملاحون فى ظلمات البحار قرونًا بعد قرون .

طفولته :

هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن أبى معلّق السعدى بن أبى الركائب النجدى ، وقد ولد فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى (حوالى ٨٣٨ هـ - ١٤٣٤ م) فى جلفار على ساحل عُمَان ، وكان جده ربانًا ، كما كان والده ربانًا أيضًا ، وكانت توجد صخرة بارزة على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر تسمى « ظَهْرَةَ ماجد » كان والده يربط سفينته عندها ، كما كان يسمى ربانَ البرّيْنِ أى ساحلى البحر الأحمر ، وقد سجل تجاربه الملاحية فى كتاب ضخم بعنوان « الأرجوزة الحجازية » فى ألف بيت من الشعر ، ومن هذا الأب الربان الشهير جاء أحمد بن ماجد ، فنشأ فى بيت على شاطىء عُمَان ، تتردد فيه المفردات الملاحية وحكايات البحر ، وترتبط حياة جميع الأقارب والجيران بالبحر ، منهم الملاّحون ومنهم الصيادون ، حتى من لا يقوى منهم على ركوب البحر كان يعمل فيما يجود به البحر ، إمَّا ما يستخرجه الصيادون من خيراته ، أو ما تحمله السفن من أنواع التجارة المختلفة من شتى البلاد .

وتقترب الصورة – حيث ذلك الشاطىء المتسع بأمواجه الرقيقة ، وأحمد بن ماجد مازال طفلاً فى الخامسة من عمره ، يعدو على الرمال مع أصحابه ، ويلتقط المحار ، ويستمتع باللعب فى المياه التى تقبّل الشاطىء فى حنان ، ويرتبط الطفل بالبحر ، لم يعد يهتم بتلك الدجاجات التى تربيها والدته فى الدار ، لقد صار حبه الكبير للمياه الزرقاء الدائمة الحركة ، وصار لعبه مع تلك المويجات التى تشاكسه دائمًا هو وأصحابه ، صار يذهب مبكرًا ليرى الشمس وهى تصعد من الأفق ، ناشرة أنوارها على صفحة المياه ، ويتابع السفن وهى تتوغل فى البحر ، ويتابع القوارب وهى تسبح على الأمواج ، حين صار عمره تسع سنوات تطلع إلى الإبحار ، فقد صار بعض أصحابه يركبون القوارب ويبحرون مع آبائهم ، وهو لا يقدر على ذلك ، فوالده يخرج فى رحلات طويلة بسفينته الكبيرة ، فيذهب إلى البحر الأحمر وهو لا يقدر على ذلك ، هكذا يقول له والده وتقول له والدته ، لكنه يبغى الإبحار ، لذلك قرر أن يعرض الأمر على والده حين يعود من رحلته ، تحدث إلى أبيه حين عاد ، وأخبره أنه يشعر أن أصحابه أحسن منه حظًّا ، حين ذاك قال له والده : إن عليه أن يجيد السباحة أولاً ، وبعد ذلك يمكنه الإبحار .

رجع أبوه من الرحلة التالية فوجد أحمد قد أجاد السباحة تمامًا ، فصنع له قاربًا بمجدافين صغيرين ، يقوى على استعمالهما ، وبدأ

أحمد بن ماجد يتنزه بقاربه الصغير بالقرب من الشاطىء ، متفاخرًا ، وصار أكثر ارتباطًا بالبحر .

الإبحــار :

وكبر الطفل ، صار عمره عشر سنوات ، فقرر والده أن يصحبه معه فى رحلته التالية ، عارضت والدته ، فقد خشيت على ابنها من ركوب البحر وهو مازال فى هذه السن ، تركه والده تلك المرة ، لكنه اصطحبه فى المرة التى بعدها ، كانت المرة الأولى التى يركب فيها أحمد بن ماجد سفينة كبيرة ، أذهله كل ما يراه ، اتساع البحر ، عنف الرياح ،طاعة البحارة لوالده الربان ، العمل الجاد والمجهد طوال الرحلة ، تفاهم الملاحين وإدراك كل منهم لما يجب عليه عمله ، وأداء المطلوب بكل دقة ومهارة ، ذلك ما كان يحدث بالنهار ، أما الليل فكان مخيفًا ، حيث يطبق الظلام ، وتعلو أصوات الرياح والأمواج ، ويتناقل البحارة الحكايات المرعبة عن مخلوقات البحر المخيفة ، حين ذاك كان أحمد بن ماجد يجلس ناظرًا إلى السماء ، ويشعر أن نجوم الليل تخفّف عنه ما يشعر به من خوف ، ولكن حين يبزغ الفجر ويبدأ مد النور كان كل شىء يختلف ، فتتبدد الأوهام والمخاوف ، فى تلك الرحلة عرف ابن ماجد الفرق بين ليل البحر ونهاره ، وعلم الفرق الشاسع بينهما ، وعلم أيضًا الفرق بين ساعات اليوم فى البحر وساعاته فى البر .

لم تكن تلك الرحلة إلا بداية ، فقد توالى خروج الفتى مع أبيه فى رحلات كثيرة متتالية ، وقد كان والده حصيفًا ، تركه طوال الرحلة الأولى متفرجًا فى الذهاب والعودة ، وفى الرحلة الثانية كلّفه بأعمال بسيطة ، وأخذ يكلّفه تدريجيًا بالأعمال الصعبة ، ثم الأكثر صعوبة ، حتى جعله معاونًا للملاح المسئول عن دفة السفينة ، وهو عمل خطير وحساس ، ولم يكلّفه والده بذلك إلا بعد أن جعله يؤدى كل الأعمال التى يقوم بها الملاحون ، ومكث معاونًا على الدفة فى ثلاث رحلات ، ثم جعله مسئولاً عنها فى الرحلة الرابعة ، وأمر الملاح الآخر أن يكتفى بمراقبته والإشراف عليه ، وعادت السفينة سالمة آمنة إلى ساحل عُمَان ، فأحس بالزهو والفخار لكن والده صدمه حين أنبه على زهوه ، وحذره منه ، فالزهو قد يجعله لا يقدّر أخطار البحر حق قدرها ، وكان درسًا هامًا أفاد أحمد بن ماجد طوال عمره .

صار عمر أحمد بن ماجد سبعة عشر عامًا ، وكان والده يعد له مفاجأة رائعة ، فحين صعدوا إلى سطح السفينة أمره بقيادتها ، فهو الربان هذه المرة ، وسيكون دور أبيه هو الإشراف كى يتدخل إذا احتاج الأمر ، أحس أحمد بن ماجد بمدى المسئولية الضخمة التى ألقاها والده على عاتقه ، فدعا الله – سبحانه وتعالى – أن يعينه ويوفقه ، وتوكل على الله ، فأبحر بالسفينة من شاطىء عُمَان إلى بحر العرب ، ثم إلى البحر الأحمر ، وهناك جاء دور والده فأشرف على تفريغ حمولة

السفينة من البضائع ، وباعها ، ثم اشترى بأثمانها بضائع أخرى ، حملها فى السفينة ، ثم أمر ولده بالإبحار عائدًا إلى عُمَان ، فى تلك المرة تدخل والده مرات قليلة ، لكنه فى المرة التالية لم يتدخل ، إذ كان أحمد بن ماجد قد وعى الدرس جيدًا ، وصار ربانًا يعتمد عليه ، أما الرحلة التى تليها فقد ترك له مهمة نقل بضائع التجار من عُمَان إلى شاطىء البحر الأحمر ، وبيْعها ، وشراء ما كلّفه التجار بشرائه لهم ، وكان يتدخل أيضا فى مسألة البيع والشراء ، ثم ترك الأمر كله لأحمد بعد ذلك ، فقد صارت لديه خبرة فى كل هذه الأمور ، ولم يعد ينقصه شىء لكى يتم انتظام حياته إلا أن يتزوج .

تزوج أحمد بن ماجد ، وأكرمه الله – عز وجل – بأول أبنائه ، وصار واحدًا من ربابنة البحار المعروفين بالتدين العميق والمهارة الملاحية والدقة فى إصلاح ما يصيب السفن من أعطاب ، وتزود – بالإضافة إلى كل ذلك – بكثير من العلوم ، وتعمّق فى دراستها حتى تمكّن منها ، مثل علم الفلك والرياضيات والجغرافيا وعلوم الدين والأدب ، وقد تبدى تمكُّنه من تلك العلوم فى مخترعاته ومؤلفاته ، ثم توفى والده فقام برحلاته إلى البحر الأحمر ، لكنّ عينه كانت تلتفت دائمًا إلى البحر الكبير فى الغرب ، حيث بلاد الهند التى يسمع كثيرًا عما تحويه من عجائب ، وما فيها من بضائع وتوابل .

سواحل الهند :

ذات يوم زاره عبدالله العُمَانى ، وهو واحد من أكبر التجار فى بلاد عُمَان ، وسأله إن كان قد سمع عن ملاح يمكنه الإبحار إلى بلاد الهند ، ليأتيه ببضائع من هناك ، فأخبره أحمد بن ماجد أنه يفكر فى القيام بهذه المغامرة ، ولكن بعد تذليل بعض العقبات ، وأهمها عدم وجود سفينة كبيرة تتحمل رحلة طويلة كهذه الرحلة ، وبدأ فى التفكير الجدى فى بناء سفينة كبيرة جديدة ، كان معه مال يكفى تكاليف بناء تلك السفينة ، لكن بناءها سوف يستغرق وقتًا طويلاً ، وسوف يعطّل رحلاته ، فهو يجب أن يكون موجودًا أثناء ذلك حتى يتابع بنفسه هذا الأمر .

صار أحمد بن ماجد ينام فيحلم بشواطىء الهند ، ويستيقظ فيملأ هذا الأمر تفكيره ، وأخيرًا قرر بناء السفينة ، حقًّا هو لم يبحر من قبل إلى هناك ، ولم يبحر أحد من معاصريه ، ولكنَّ الذين ذهبوا إلى بلاد الهند عن طريق البر يؤكدون وجود عجائب وبضائع رائجة فى تلك البلاد ، وهو يفهم البحر ، ويستطيع أن يدرك الطريق الآمن للوصول إلى شاطىء الهند ، ولكن ما وَقْعُ ذلك على بحارة سفينته الحالية ؟ .. ذهب فحدّثهم بما ينوى ، عارضه قليلون ولكن وافقه معظم بحارته ، وهكذا بدأ فى بناء سفينة كبيرة ، كان الناس يمرون فيتعجبون من ضخامتها ، واكتمل بناؤها .

تجمّع أصحاب السفن الأخرى ، وحذّروا أحمد بن ماجد من الإبحار إلى شواطىء الهند ، فقد سمعوا أن كثيرًا من الربابنة حاولوا ذلك ، لكن سفنهم قد تحطمت فى الطريق ، كان أحد الموجودين ملاحًا ممن نجوا من إحدى تلك السفن التى تحطمت ، سأله أحمد بن ماجد عن كيفية تحطمها وغرقها ، فأخبره أنها ارتطمت بالصخور المختفية تحت سطح الماء على عمق قليل ، سأله عن كيفية إبحارها ، فأجابه بأنهم كانوا يبحرون كالعادة بمحاذاة الساحل ، حينئذ علم أحمد بن ماجد أنه يجب عليه التوغل فى عرض البحر ، لكى يَسْلَمَ فى رحلته ويحافظ على سفينته ، حين أعلن أنه سيبحر بسفينته الجديدة إلى شواطىء الهند أعطاه قليل من التجار بضائعهم ، وأحجم الآخرون ، إذ كانوا يتوقعون عدم وصوله سالمًا إلى هناك .

وبدأ رحلته الأولى إلى بلاد الهند ، فخرج من ساحل جلفار إلى بحر عُمَان حيث خرج منه متوغلاً فى المحيط الهندى ، ثم اتجه شرقًا وهو فى عرض المحيط حتى صار فى مواجهة الشواطىء الهندية ، فجنح إليها ووصل سالمًا ، وعاد غانمًا محمَّلاً ببضائع الهند ، وكان أهمها الحرير الهندى والعود الهندى والتوابل .

تسابق التجار لإعطائه بضائعهم ، حين رأوا أنه عاد سالمًا ، لكنه لم يأخذ البضائع من الجميع ، بل أخذ على قَدْرِ ما تسمح به حمولة السفينة .

وتوالت رحلات أحمد بن ماجد إلى شواطىء الهند ، يحمل البضائع من بلاد عمان ، فيبيعها فى بلاد الهند ، ويشترى بثمنها بضائع من بلاد الهند يوصلها إلى التجار فى بلاد عمان ، ويأخذ عمولته عليها ، ثم قرر أحمد بن ماجد أن يحمل لنفسه بعض البضائع ويبيعها لحسابه ، فانهالت عليه المكاسب ، وتجمّعت لديه الأموال ، ولم تمر أربع سنوات إلا وصار واحدًا من الأثرياء المعدودين ببلاد عمان .

وقرر ذات يوم أمرًا ، هو لن يبيع البضائع التى يحملها من بلاد عمان فى الهند ، بل سيبيعها فى شواطىء إفريقيا ، ويشترى بضائع من إفريقيا ليبيعها فى الهند ، ثم يشترى بضائع من الهند يعود بها إلى عمان ، وهذا سيجعل المكسب أضعافًا مضاعفة .

وهكذا بدأ أحمد بن ماجد طريقًا جديدًا فى رحلاته التجارية ، فحمل البضائع من عمان ، وأبحر بها حتى وصل إلى ماليندى ، التى هى كينيا الحالية ، وهناك تعرّف إلى ملكها وصارا صديقين ، حمل بضائع من إفريقيا فباعها فى الهند ، وحمل بضائع من الهند ، ورجع بها إلى عمان ، وتعددت رحلاته ، وتعلّم كثيرًا من اللغات ، منها الفارسية والسنسكريتية ولغة جاوة والزنج وغيرها ، وأقام علاقات طيبة مع أهل البلاد التى زارها ، وتوثقت علاقته بأمرائها وملوكها .

لكن أحمد بن ماجد لم يقضِ حياته كلها فى إبحار متواصل ، فقد كانت هناك فترات قليلة من الراحة يقضيها فى إفريقيا أو الهند ، وكانت

هناك فترات طويلة نوعًا ما تصل إلى عدة شهور يقضيها فى بلدته جلفار على ساحل عمان مع زوجته وأولاده وبين أهله ، وفى تلك الفترات كان يؤلف الكتب فى علوم البحار ، وما يرتبط بذلك من الملاحة الفلكية ووَصْفِ السواحل ، وطرق الإبحار والأحياء المائية والظواهر المناخية وغيرها .

* * *

الربـــان

مكانتــه :

لم يصل أحمد بن ما جد إلى مكانته فى ميدان الملاحة البحرية بصفته ربانًا ماهرًا فحسب ، ولكن اتخذ مكانة رفيعة بصفته أمهر الربابنة فى عصره وعبر العصور السابقة عليه ، فلم تعرف البحار رجلاً مثله يقدر على مواجهة العواصف والأنواء ويشق صدر الأمواج ، ويقرأ خريطة النجوم فى السماء ، ويستخدم الآلات ، كى تصل السفينة إلى غايتها ، ويعود البحارة إلى أهليهم سالمين .

كان إذا عاد إلى بلده جلنار على شاطىء عمان يهرع التجار إليه ، وإذا أقام التف الناس حواليه يسمعون منه حكايات البلدان والبحار ، وحكايات القدماء والأشعار والأخبار ، فهو واحد من العالمين بالتاريخ ، يحدّث أهل بلده عن مواقف خلق الله – عز وجل – عبر السنين الطويلة ، ويطعّم ما يرويه بالآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة مركّزًا دائمًا على النواحى الدينية ، داعيًا إلى الأخلاق الحسنة ، كما كان يطعّم ما يرويه أيضًا بالأبيات الشعرية التى تحوى الحكمة والمعانى الطيبة ، وكان إذا همَّ بالإبحار بسفينته خرج أهل جلفار لوداعه ، داعين له بالعودة سالمًا هو وأصحابه – أما إذا خرج إلى عرض البحر ، فهو أسد البحار وليث الليوث ، الذى يعرف أحوال الرياح والأمواج ويدرى خطوط السير ، يقود سفينته فى الليل كما يقودها فى النهار ، مهتديًا بالنجوم فى معرفة الاتجاهات ، وهو الرئيس المطاع ،

والقائد المهاب المحبوب ، حاسمٌ بغير قسوة ، مَرِحٌ بغير تراخٍ ، مبتسم يشيع حوله جوًّا من البهجة ولا يفارقه نشاطه وحيويته لحظة من اللحظات .

وعُرِف أحمد بن ماجد عبر البلاد ، فقد تناقل الناس أخبار رحلاته الموفقة ، وبراعته التى ليس لها مثيل ، وتديُّنه العميق ، فهو يدعو دائمًا إلى ذكر الله عز وجل ، ومن نصائحه للملاحين قوله : (ينبغى أنك إذا ركبت البحر أن تلزم الطهارة ، فإنك فى السفينة ضيف من أضياف البارى – عز وجل – فلا تغفل عن ذكره) .

ولم يكن العرب وحدهم المهتمين بالملاحة ، بل كانت هناك أمم أخرى تعافر لتجد لها مكانًا فى هذا المجال .

محاولات البرتغال :

توجهت أنظار كثير من الدول إلى الهند ، بغية الإفادة تجاريًّا مما تنتجه ، وكانت المهمة سهلة بالنسبة للدول القريبة منها ، أما الدول البعيدة فكان من المستحيل أن تحقق هذه الفائدة ، لكن حكومة البرتغال أرادت ذلك ، كانت المشكلة أنها تقع فى جنوب غرب أوروبا على المحيط الأطلسى ، وبينها وبين بلاد الهند أمم ودول وعوائق طبيعية كثيرة من بحار وجبال وصحارى ، لذلك فكروا فى الوصول إليها بالطريق البحرى ، وقد نجحت سفن البرتغال فى الوصول إلى غينيا فى غرب

إفريقيا سنة ١٤٥٥ م ، ثم نجح الربان البرتغالى برتليمو دياز فى الوصول إلى جنوب إفريقيا ، واجتياز رأس العواصف الذى سمى رأس الرجاء الصالح فيما بعد ، وكانت رحلة دياز سنة ١٤٨٧ – وبعد عشر سنوات أى فى سنة ١٤٩٧ م قام فاسكودا جاما برحلته ، كان عمره آنذاك ٣٧ سنة ، فى حين كان أحمد بن ماجد فى الستين من عمرة تقريبًا .

خرج فاسكودا جاما من البرتغال بثلاث سفن ومعه أخوه بولو و ١٥٠ بحارًا ، فاجتاز رأس الرجاء الصالح ، وفقد إحدى سفنه عند ناتال على الساحل الإفريقى ، فحمل بحارتها فى سفينتيه الأخريين ، واتجه شمالاً بمحاذاة الشاطىء الإفريقى حتى وصل إلى مالیندی فى مملكة كاميا وهى كينيا .

كان عليه أن يحرمن كينيا فى الشاطىء الشرقى لإفريقيا إلى بحر العرب جنوب شبه الجزيرة العربية ، وينطلق من هناك إلى المحيط الهندى ، لكنّ بحارة مالیندی حذروه من المخاطرة بنفسه وسفينتيه وبحارته ، وأخبروه أن كل السفن التى حاولت القيام بمثل هذه الرحلة قد تحطمت على الصخور ، وأبلغوه أن الوحيد الذى يمكنه الإبحار إلى الهند ملاح عربى مسلم وهو مُعَلّمٌ أى ربان ، ويطلق عليه البحارة اسم المُعَلّم كَانَا أو كَانَاكَا ، ومعناها الحاسب أو الفلكىّ باللغة السنسكريتية ، وذلك لأنه كان خبيرًا بالملاحة الفلكية ، أما اسمه العربى

فهو أحمد بن ماجد ، وهو صديق لملك ماليندى ، وقرر فاسكودا جاما أن يستعين بابن ماجد فى رحلته .

لقاؤه مع فاسكودا جاما :

ذهب فاسكودا جاما إلى ملك ماليندى ، فاحتفى به احتفاء زائدًا وأكرمه إكرامًا واسعًا وأعطى فاسكودا جاما للملك هدايا كثيرة قيّمة وطلب منه أن يأمر الملاح العربى أحمد بن ماجد بالإبحار معه ليدلّه إلى طريق الهند ، لكن الملك اعتذر ، فإن أحمد بن ماجد فى إحدى رحلاته ، وربما لا يجىء إلى ماليندى قبل شهر .

استشار فاسكودا جاما أصحابه ، وقرروا الانتظار حتى يجىء الملاح العربى ، وشجعهم على اتخاذ هذا القرار أنهم فقدوا إحدى سفنهم قبل وصولهم إلى ماليندى ، وانتظروا حتى وصل أحمد بن ماجد بسفينته الضخمة فاستدعاه الملك ، وأخبره برغبة الأميرال البرتغالى فاسكودا جاما .

كان أحمد بن ماجد قد وصل توًا من بلاد الهند ، ولا حاجة به إلى العودة إليها قبل عام ، بل هو سيحمل البضائع من توابل وغيرها من ماليندى ، ويرجع بسفينته إلى جلفار بشاطىء عمان ، بالإضافة إلى هذا هو لن يترك سفينته ليعاون ملاحًا آخر فى قيادة سفينته .

أبلغ الملك الرد إلى فاسكودا جاما ، الذى طلب منه أن يحاول إقناع

أحمد بن ماجد ، فوعده بذلك ولم يفعل ، فلما رأى دا جاما أن الملك تباطأ فى إرسال أحمد بن ماجد إليه ، انتظر حتى زار أحد أقرباء الملك سفينته فاحتجزه كرهينة ، حتى يفى الملك بوعده ، وقد أدى ذلك إلى أن سارع ملك ماليندى إلى ابن ماجد ، وضغط عليه بكل الوسائل ، كى يترك سفينته فى ماليندى حتى يوصل فاسكودا جاما إلى سواحل الهند ، ثم يعود لأخذها ، ووافق أن يقوم بهذه الرحلة - ولكن بشروط ، طلب أن يقولها للأميرال دا جاما نفسه ، فالتقى الجميع على ظهر السفينة البرتغالية ، وفى قمرة الربان كان اللقاء التاريخى بين أشهر ربابنة البحار فى ذلك الزمان .

أحـداث الرحلـة :

تعارف الربانان الشهيران أحمد بن ماجد وفاسكودا جاما ، وعرض كل منهما ما لديه من آلات ملاحية وخرائط بحرية ، وقد أصيب دا جاما بالذهول مما رأى من آلات متطورة وخرائط دقيقة لدى ابن ماجد ، وتحدّثا .. كان البرتغاليون يعرفون خطوط العرض برصد الشمس ، بينما كان أحمد بن ماجد يعرف خطوط العرض برصد الشمس نهارًا ، وبرصد النجوم ليلاً ، وهو ما كان يفتقده فاسكودا جاما ، وأحس ساعتها أنه عثر على الرجل الأوحد فى العالم ، الذى يستطيع توصيله سالمًا إلى شواطىء الهند ، لكن أحمد بن ماجد أبلغه أن موافقته على توصيله مقرونة بشروط :

أولها : أن يخلي سبيل قريب الملك الذى يحتفظ به كرهينة على ظهر سفينته .

وثانيها : أن يرافقه عدد من بحارته – الذين يعرفون أسلوبه فى الملاحة – على ظهر سفينة فاسكودا جاما .

أما ثالث الشروط : فهو أهمها ، وسأله : فاسكودا جاما : وما هذا الشرط ؟

فأجاب أحمد بن ماجد : أن أكون أنا قائد السفينة وربانها ، فلا تتدخل فى شيء ، حتى تعود إلى ثغر ماليندى ، فأسلمك سفينتك .

كان شرطًا يصعب قبوله بالنسبة للأميرال الذى قاد سفنه من سواحل البرتغال فى جنوب غرب أوربا ، حتى وصل بها إلى سواحل كينيا فى شرق إفريقيا ، ولكنه لم يجد بُدًّا من الموافقة على هذا الشرط أيضًا ، حدث ذلك يوم ٢٢ أبريل سنة ١٤٩٨ م ، وفى يوم ٢٤ أبريل بدأت الرحلة التاريخية فوصلوا سالمين إلى كلكتا على شواطيء الهند بعد ٢٢ يومًا دون عناءٍ ملاحيٍّ ودون مخاطر ، ولكن جرت أحداث كثيرة على ظهر السفينة منذ إبحارها من ماليندى حتى وصولها إلى كلكتا ، وكان يسميها البرتغاليون كواليكوت ، وذُكرت لدى بعض الجغرافيين العرب باسم قاليقوط .

كانت هناك عيون تراقب أحمد بن ماجد منذ اللحظة الأولى التى أبحرت فيها السفينتان من ماليندى ، كان يقود السفينة الأولى ، فى

حين كان يتبعه بولو – أخو فاسكودا جاما بالسفينة الثانية ، أما العيون التى كانت تراقب ابن ماجد فكانت عيون ثلاثة من البحارة ، يتبعون مدرسة « الجونتا » فى لشبونة ، وهى مدرسة للرياضيات والفلك ، أنشأها رجل اسمه مارتن بهايم سنة ١٤٩٢ م حين طُرد مع ١٢٠ ألف شخص من قشتالة بأسبانيا ، فقد أخذ معه هو وأصحابه ما كانوا ترجموه من اللغة العربية إلى لغتهم من كتب ورسائل فى المُرْشِدَاتِ الملاحية والخرائط التى تبيّن الطرق البحرية ، وكذلك الجداول الفلكية الخاصة بالملاحة ، وحين أزمع فاسكودا جاما القيام برحلته أمر ملك البرتغال مانويل الثانى كل الجهات العلمية بمدّه بما لديها من كتب يمكن أن تفيده فى رحلته ، فمدته مدرسة الجونتا بما لديها ، وأمرت ثلاثة من البحارة الذين يدينون لها أن يكونوا على سفينة فاسكودا جاما ليعودوا بالأخبار الحقيقية للرحلة ، ولكى يحصلوا على كل ما يدركونه من كتب وخرائط ملاحية وجداول فلكية من العرب أو الهنود إذا أكملوا الرحلة ، لذلك كانت عيون هؤلاء البحارة ترقب أحمد بن ماجد ، ولم يكن هدفهم غير الحصول على ذلك الصندوق الصغير الذى يحتفظ به فى قمرته ، والذى يحفظ فيه الخرائط الملاحية الخاصة به ، والتى لا توجد مع أحد سواه .

صحب أحمد بن ماجد عشرة ملاحين من بحارته ، ممن يثق فى براعتهم الملاحية وقدرتهم على التصرف فى المواقف الصعبة ، وكان

أحدهم اسمه بدر ، لم يشارك فى أعمال البحارة هذه المرة ، فقد كانت مهمته محددة فى البقاء فى قمرة أحمد بن ماجد حتى يحرس الصندوق الخطير الذى يضم الأوراق والخرائط والجداول الفلكية ، ولا يخرج من القمرة بأى حال من الأحوال .

لكن البحارة الثلاثة الذين أرسلتهم الجونتا لم ييأسوا ، فقد كان عليهم تنفيذ مهمتهم بسرقة أوراق أحمد بن ماجد ، وخططوا ونفذوا ، ففى اليوم الثالث من بدء الرحلة فوجىء بدر ببحار يطرق باب القمرة ويدعوه للخروج ، فالسفينة تحترق ، خرج بدر يعدو إلى آخر الرواق ومعه ذلك البحار ، فوجد قطعة من القماش مشتعلة فيها النار وسرعان ما أطفأها ذلك البحار وحده ، حينذاك علم بدر أنه قد خُدع ، فعاد مسرعًا إلى القمرة التى ترك بابها مفتوحًا ، لكنّ الصندوق كان قد اختفى .

كان بدر رجلاً رزينًا ، وبالرغم من فداحة الأمر إلا أنه انتظر حتى جاء أحمد بن ماجد إلى القمرة فأخبره بالأمر ، فقال له : قد أحسنت بالصمت حتى أجيء ، وأمره ألا يبدى شيئًا مما حدث ، وأمره أن يدله على ذلك البحار الذى أخرجه من القمرة فدله عليه ، تحدث ابن ماجد مع أصحابه واحدًا واحدًا كُلاًّ على حدة ، وأخبرهم بالأمر ودلّهم على البحار ، وأمرهم أن يراقبوه بكل دقة دون أن يشعر ، فهذا البحار له زميل آخر دخل إلى القمرة وسرق الصندوق ، وجميع البحارة

يتحدثون ويثرثرون ويمزحون ، لكن هذا البحار سيتحاشى التحدث إلى زميله إلى نهاية الرحلة حتى لا يلفت إليه الأنظار ، لذلك أمر أحمد بن ماجد بحارته العشرة أن يراقبوا هذا البحار حتى يعرفوا البحار الآخر الذى لا يتحدث إليه ، ففى قمرة ذلك البحار الآخر سوف يجدون الصندوق .

نفّذ البحارة العرب أوامر قائدهم ، وبعد أسبوع جاءوه بالنتيجة ، هناك بحاران لا يتحدث هذا البحار إليهما ، فأمر أحمد بن ماجد أصحابه أن يهجم كل خمسة منهم على قمرة كل بحار من هذين البحارين فى نفس الوقت ويفتشوا القمرتين ، فسوف يجدون الصندوق فى إحداهما ، وكان ما توقعه الربان الحكيم ، فقد وجدوا الصندوق فى قمرة أحد البحارين ، حينذاك اطمأن أحمد بن ماجد واستدعى فاسكودا جاما ، ووبّخه على فعلته ، فأقسم أنه لا علم له بهذا الأمر ، وأصدر فاسكودا جاما أوامره بعزل البحارين المذنبين – الذى أخرج بدرًا من القمرة ، والذى وُجد الصندوق لديه – وتقييدهما فى صارى السفينة واقفين حتى يعترفا باسم من كلّفهما بهذا العمل المشين ، ووضع حراسًا عندهما ، ولكن حين دخل الليل فوجىء الحراس بسهمين متتاليين يستقران فى صدرى البحارين المقيّدين ، ولم يعرف أحد من أطلق هذين السهمين .

منذ ذلك اليوم جعل أحمد بن ماجد ثلاثة من رجاله يحرسون صندوق

الأوراق حتى وصلوا إلى كلكتا بشواطىء الهند ، فمكثوا هناك ثلاثة أسابيع ثم حملوا بضائع كثيرة وعادوا إلى ثغر ماليندى ، حيث أخذ أحمد بن ماجد سفينته وعاد إلى عُمَان ، فى حين واصل فاسكودا جاما رحلته إلى البرتغال ، وهو يحمل معه معلومات قيمة جمعها عن بلاد الهند وتجاراتها ، فأوصل تلك المعلومات إلى حكومة بلاده .

نتائج الرحلـة :

كانت السفن تتحطم على الصخور وهى فى طريقها إلى الهند ، إذ كان الربابنة يبحرون بسفنهم بمحاذاة الساحل ، فقد كان التوغل فى المحيط الهندى غير مأمون العواقب ، وحين كان يغامر أحدهم فيحاول التوغل فيه كانت الأمواج تبتلع سفينته بمن عليها ، ثم اقتحم أحمد بن ماجد أعالى البحار ، فعرف كيف يتوغل فى عرض المحيط ، فيتحاشى بذلك الارتطام بالصخور القريبة من الشواطىء ، ثم يتجه إلى سواحل الهند بعد ذلك ، ونفس الأمر خلال عودته ، فهو كان يعرف الخط الذى يسير فيه حين يتوغل فى المحيط الهندى ، فلا يتوغل أكثر من اللازم حتى لا تتوه سفينته بين الأمواج ، ولا يقترب أكثر من اللازم ، وقد عرف فاسكودا جاما هذه النظرية فى الإبحار إلى الهند من أحمد بن ماجد أسد البحار خلال رحلته ، وعن طريق هذه الرحلة عرف البرتغاليون الطريق إلى الهند وتجارة التوابل والثراء ، فبدأت حملاتهم البحرية بعد عودة « فاسكودا جاما » بسنة واحدة أى

سنة ١٥٠٠ م ، فقامت حملة بقيادة ديوجو دياز الذى اكتشف جزيرة مدغشقر .

ثم توالت حملات استولوا خلالها على موزمبيق وساحل الزنج وسُفَالَة ، وذلك لتوفر المدافع والبنادق معهم ، وأقاموا التحصينات على الشواطىء الإفريقية الشرقية ، لتكون قواعد لهم ، وامتد سلطانهم حتى وصلوا إلى الهند فاحتلوها ، واستولى الأميرال البرتغالى « الفونسو دى البكويرك » على جنوب شبه جزيرة العرب والبحر الأحمر وعلى عدن وعُمَان وهرمز ، وأرسل السلطان الغورى حملة لمحاربة جنود البرتغال على ساحل الهند بقيادة الأمير حسين الكردى ، لكن القائد البرتغالى « داليميدا » انتصر عليه ، وانتزع البرتغاليون مراكز التجارة من أيدى العرب وأحرقوا مراكبهم واستولوا على خرائطهم الملاحية ، واحتلوا المراكز التجارية ٣٠٠ سنة ، بل واحتلوا كل البلاد المطلة على البحار المؤدية إلى الهند ، حدث كل ذلك نتيجة لرحلة فاسكودا جاما إلى بلاد الهند ، ولولا قيادة أحمد بن ماجد لسفنه لما حدث كل هذا ، فهل أخطأ حين قاد سفن البرتغال وعرفهم طريق الهند ؟؟ .

لا ، لم يخطىء أحمد بن ماجد ، فأولاً:هو قام بهذه الرحلة بتكليف من ملك ماليندى ، ثانيًا:هو كان يتقدم جيشًا لربان مغامر ، وه يتقدمه

بصفة فاسكودا جاما عدوًا يبغى الاحتلال والتخريب ، فهو كان يرى أن العلم حق للجميع ، بدليل أنه وضع كل خبراته الملاحية فى أكثر من ثلاثين كتابًا للأجيال التالية ، وقد أعلن رأيه صريحًا فى مطلع قصيدة له فى علم البحر حيث قال :

خليــلىّ هيــا واسمعا دُرَّ منطقــى

فلا عاش مَنْ يخفى العلوم ولا بَقِى

وليس الذنب ذنب أحمد بن ماجد الذى قدّم علمه لإسعاد البشر والتيسير لهم ، فاستخدمه الآخرون فى أطماعهم ، وتسببوا فى شقاء الناس ، لقد قاد السفن كملاح شريف ، دون التفكير فى الاستغلال السيئ فيما بعد لهذا الأمر من جانب البرتغاليين ، فهو مثل أى عالم يقدم علمه للإفادة به ، مثله مثل « ألفريد نوبل » الذى أجهد نفسه فى التوصل إلى اختراع الديناميت لمساعدة الناس فاستخدمه بعضهم فى الشر ، فالعيب ليس فى نشر العلم ، وإنما العيب فى النفوس المريضة التى تستغل ذلك العلم لتحقيق الأطماع الشخصية .

* * *

العـــالم

مكانته العلميــة :

أدرك أحمد بن ماجد أن العالِمَ يجب أن يسجّل ما توصل إليه فى كتب ، تكون سفراءه إلى الناس فى عصره ، وشهوده أمام الأجيال التالية على ما حققه من إنجاز ، وتكون منطلقًا لمن يجىء من بعده فينمو العطاء عبر العصور وتتواصل حلقاته ، لذلك ألّف أكثر من ثلاثين كتابًا ، ونتذكر بهذه المناسبة بعض عباقرة العرب مثل أبى حامد الغرناطى ، ذلك الرحالة الذى ألّف كتابه الأول وعمره ٧٤ سنة تحت إلحاح أحد أصدقائه ، وألف كتابه الثانى وعمره ٨٤ سنة تحت إلحاح صديق آخر ، ولولا إلحاح هذين الصديقين لما سجل له تاريخ العلم ريادته لعلم الكوزموغرافيا ، وهو علم الكون مركزًا على الناحية العجائبية فى الأرض ، ونتذكر غيره ممن لم يؤلفوا كتبًا مثل زرياب الذى أنشأ أول أكاديمية للموسيقا والغناء فى العالم ، والذى أضاف الوتر الخامس للعود ، والذى أدخل إلى أوروبا أكثر من أربعين آلة موسيقية ، وطور الموسيقا فى العالم ، بل وأثر فى أذواق الناس – مأكليهم وملبسهم وعطورهم وغيرها ، ولاشك أنه كانت لديه رؤية جمالية ، وكان ذا فكر متطور ، ولكن لم يتبق من كل ذلك غير حكايات تتناقلها الكتب ، ولو كان ألف كتابًا لنقل لنا فكره ورؤيته .

وهناك غيره ممن طواهم النسيان ، فلم يتبقّ مما أنجزوه حتى الحكايات ، لأنهم لم يخلفوا لمن جاء من بعدهم أثرًا مكتوبًا ، كل

ذلك أدركه أحمد بن ماجد ، فألّف كتبه التى ابتدع فيها علوم البحار فأفاد البشرية جمعاء ، وأرسى قواعد علم جديد لم يكن معروفًا قَبْلَهُ ، فهو رائد هذا الفرع من العلوم ، لأنه أول من ألّف فيه كتبًا ذات منهج وقيمة علمية محترمة ، وكل ما ألّفه من سبقوه فى هذا المجال لم يتعدَّ وسائل الإرشاد الملاحى .

ولم يكن أحمد بن ماجد عالمًا مؤلّفًا فحسب ، بل كان أيضًا عالمًا مخترعًا ، تمكن من اختراع عدد من الآلات الخاصة بالملاحة الفلكية ، وأهم مخترعاته البوصلة المقسَّمة إلى ٣٢ درجة ، والتى لم تزل مستخدمة إلى يومنا هذا .

وقد اعترفت الدوائر العلمية فى العالم أجمع بفضل أحمد بن ماجد ، بل لقد أقامت حكومة البرتغال نُصبًا تذكاريًا فى مدينة ماليندى تخليدًا لذكراه ، وأعترافًا بفضله ، وتقديرًا لدوره فى الملاحة العالمية وفى علوم البحار .

مخترعاته :

عرف العرب آلات ملاحية فلكية يستطيعون باستخدامها تحديد خطوط العرض ، وذلك بتحديد مواقع النجوم ، وهى آلات خشبية إحداها تُعرف باسم الكمال ، وأخرى اسمها البليستى ، والثالثة اسمها اللوح ، وهذه الآلة هى التى أذهلت فاسكودا جاما حين رآها مع

أحمد بن ماجد ، وهى تحتوى على ثلاث قطع خشبية واحدة مربعة وواحدة ضيقة والثالثة أصغر ، وتنزلق جميعها على محور من خشب الأبنوس المدرّج ، ويُظن أنها من اختراع أحمد بن ماجد ، ولكن الاختراع الثابت له هو البوصلة البحرية المقسمة إلى اثنين وثلاثين درجة ، ومازال البحارة يستخدمونها إلى يومنا هذا ، خاصة أصحاب المراكب الشراعية .

وقد ظهرت البوصلة – أول ما ظهرت – بصورة بدائية عند أهل الصين وعند العرب فى صورة إبرة مغناطيسية ، فكانت على شكل إبرة معلقة فى حلقة من خشب السنط تطفو فوق الماء فتشير إلى الشمال ، أو على شكل قطعة رقيقة من المعدن مطروقة على هيئة سمكة تطفو على الماء ، فيشير فمها إلى الجنوب ، أما « وردة الرياح » فهى عبارة عن ورقة أو لوح من الخشب تقسم عليه دائرة الأفق إلى الجهات الأربع الأصلية ، ويقسم ما بين كل جهتين إلى أقسام صغيرة ، ويمكن بواسطتها معرفة اتجاه الرياح ومن أين تهب ، إذا علمنا جهة واحدة من الجهات الأصلية ليلاً أو نهارًا ، ووردة الرياح العربية مبنية على التقسيم الليلى لدائرة الأفق ، فهى قائمة على الاستدلال على جهة الشمال بالنجم القطبى – أو الجاد كما أسماه العرب قديمًا – وهى مقسمة إلى أقسام فلكية ، ويستدل بها الربانُ ليلاً على الاتجاهات فيبحر بسفينته فى الاتجاه الصحيح مسارها .

حين جاء أحمد بن ماجد اخترع آلة ربط فيها بين الإبرة المغناطيسية ووردة الرياح ، فقسمها إلى ٣٢ قسمًا سماها الأخْنَانَ ، تمثّل دائرة الأفق تبعًا للجهات الأصلية حسب مطالع ومغارب نجوم معينة ، فالشمال يشير إليه الجاه « النجم القطبى » ، والجنوب يشير إليه نجم السهيل ، والشرق يشير إليه مطلع الطائر ، والغرب يشير إليه مغرب الطائر ، وبين كلِ جهة والتي تليها وضع أقسامًا هى أَخْنَانٌ تمثّل منازل النجوم ، وكل خنٍ من أخْنَانِ البوصلة عند ابن ماجد يمثل ٧ أصابع . وعلى ذلك تكون دائرة الأفق عنده مقسمة إلى ٢٢٤ أصبعًا (٣٢ خنًّا × ٧ أصابع) ، حيث الأصبع هو وحدة قياس ارتفاع النجم القطبى أو النجوم القريبة منه ، ويقابل الدرجة فى التقسيم المعاصر ، وبالقياس والحساب عُرف أن الأصبع يساوى ٩٧٠ ميلاً بحريًّا ، والاعتبار الملاحى عند ابن ماجد يتلخص فى أمرين :

١ – قياس المسافة التى تقطعها السفينة بين نقطتين .

٢ – قياس زاوية السير وخط العرض .

يبقى أن نعرف أن الإبرة المغناطيسية كانت على شكل سمكة توضع فى الماء – كما أسلفنا – أو إبرة معلقة فى حلقة ، ويعود الفضل إلى أحمد بن ماجد فى تثبيت الإبرة الممغنطة فوق سن من الوسط ، لتتحرك حركة حرة فوق قرص وردة الرياح ، وهى الطريقة المُثْلى لتثبيتها ، ومازالت تثبت بهذه الطريقة فى أية بوصلة فى العالم حتى يومنا هذا .

. ونخلص من كل ذلك إلى أن ابن ماجد قدم عدة آلا ت من اختراعه ، كما طور آلات أخرى ، مما يضيف الكثير إلى ذلك الملاح العربى الذى كان أسد البحار بحق .

مؤلفاته :

قيل إن أحمد بن ماجد كتب ٤٠ مؤلَّفًا ، وقيل ٣٢ مؤلَّفًا ، وعلى أى حال هو ألّف أكثر من ثلاثين مؤلَّفًا فى الملاحة البحرية ، وبعضها قد فُقِدَ أو ضاع ، كما ضاعت الخرائط التى وضعها لطرق الملاحة البحرية فى المحيط الهندى ، ولا ندرى إن كانت فقدت للأبد أم أنها ستظهر يومًا ما ، ويقع بعض هذه المؤلَّفات التى وضعها أحمد بن ماجد فيما يقرب من مائتى صفحة ، وبعضها صغير عبارة عن فصل فى موضوع يقع فى صفحة ، وسوف نعرض باختصار شديد ما عُرف من مؤلفاته :

١ - كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد :

وهو أهم ما ألفه أحمد بن ماجد ، إذ أوجد ما يسمى بعلم البحر ، فحوّل الملاحة من تجربة مكتسبة إلى علم يمكن دراسته وتدريسه ، وهو يعتبر رائد علوم البحار بهذا الكتاب الذى يقع فى ١٧٦ صفحة ، ويحتوى على مقدمة واثنى عشر فصلاً أطلق على كل فصل عنوان فائدة ، فهى ١٢ فائدة ، وقد فرغ من تأليفه سنة ٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠ م

ويقول إنه ألفه لركاب البحر ورؤسائه ، والفوائد التى ضمها الكتاب كالتالى :

الفائدة الأولى : فى تطور علوم البحر على أيدى سلسلة من الربابنة ، وفى شرح اصطلاحاته الملاحية .

الفائدة الثانية : ملخص للمعلومات والإرشادات التى يجب على الربان معرفتها .

الفائدة الثالثة : فى ذكر المنازل الفلكية والنجوم الملاحية ، التى يهتدى بها الربان فى عرض البحر .

الفائدة الرابعة : فى ذكر الأخنان وتقسيم النجوم والكواكب حسب درجة لَمَعَانِهَا .

الفائدة الخامسة : فى ذكر الكتب التى يجدر برؤساء البحر استيعابها ، وأغلبها فى الجغرافيا الفلكية والرياضية والوصفية .

الفائدة السادسة : فى ذكر البوصلة وعلل البحر وأخطاره .

الفائدة السابعة : فى سبل قياس ارتفاعات الأنجم .

الفائدة الثامنة : فى تجهيز السفينة بأدواتها الفنية وصيانتها وتركيب العسكر المسئولين عن حمايتها ، والرياح وأوقاتها ومواقع حدوثها ، والعلامات الطبيعية ، والعلامات البيولوجية (كالطيور

والأسماك) الخاصة بكل منطقة من مناطق البحر ودلالتها على اقتراب السفينة من البر .

الفائدة التاسعة : فى دوران البحر على كل اليابس فى الأرض ، مع وصف جغرافى للسواحل والمرافىء والبحار المختلفة كالبحر الأحمر والبحر المتوسط .

الفائدة العاشرة : فى وصف الجزر الكبيرة المشهورة ، ويذكر ١٠ جزر : **الأولى** – جزيرة العرب فيصفها ويعرض تاريخها ، ويذكر أنها كانت جزيرة ، والتحمت بالأرض بعد طوفان نوح عليه السلام والجزيرة **الثانية** – جزيرة القمر (مدغشقر) ويقول إنها كانت ملتحمة قديمًا بالأرض ثم انفصلت ، والجزيرة **الثالثة** – جزيرة سومطرة **والرابعة** – جزيرة جاوة ، **والخامسة** – جزيرة الغور ، **والسادسة** – جزيرة سيلان ، **والسابعة** – زنجبار **والثامنة** – البحرين وتسمى أوال ، والجزيرة **التاسعة** – جزيرة ابن جاوان ، أما الجزيرة **العاشرة** – فهى سقطرة .

الفائدة الحادية عشرة : فى مواسم السفر من السواحل المختلفة ، وهى تتفق مع مواسم الرياح ومدى ملاءمتها للإبحار .

الفائدة الثانية عشرة : فى وصف البحر الأحمر وجزره وشعبه المرجانية .

٢ - حاوية الاختصار فى أصول علم البحار :

ويقع فى ٦٠ صفحة ، وهو عبارة عن مقدمة نثرية وأحد عشر فصلاً كتبها شعرًا فى ١٠٨٣ بيتًا ، وقد ألفّهذا الكتاب سنة ٨٦٦ هـ وفصوله كالتالى :

الفصل الأول : فى إشارات يحتاج إليها الربان كالطين والحشائش والطيور والأسماك والحيّات (٥٥ بيتًا) يقول :

والطيـن والحيّـاتِ والأطيـارِ
والحوتِ والحشيشِ ، خُذْ أخبارى
تَغَيُّرُ الأمـواه فى الحـالاتِ
يحصـل من طَـلٌ ومن حَيَّاتِ

الفصل الثانى : فى المنازل والأخنان (٦٠ بيتًا) يقول :

فـأول معرفـةِ المنـازلِ
وهَاكَهَا شاميَّةٌ يا سـائلى
الشُّرَطَيْنِ والبُطَيْنِ والثريَّا
والدبران بَعْـدَهُمْ تَهَيَّا

الفصل الثالث : فى قواعد للباشيات (٤٠ بيتًا) ، والباشىّ يُقصد به ارتفاع النجم فوق الأفق فى حالات معينة ، يقول :

وإن تُرِدْ معرفةَ الباشى
فاسمعْ حديثَ ثِقَةٍ ماشى
فى الغَلْقِ أوفى موسمِ الأسفارِ
أوكُلُّ فصلٍ فيه لا تمارى

وعلى هذا المنوال تسير بقية فصول الكتاب بأشعار عقلانية علمية بحتة ، حيث الفصل **الرابع** فى مواسم الباشيات وشهورها (١٦٧ بيتًا) ، **والخامس** فى معرفة شطوط العرب والسيام والسودان (١٣٢ بيتًا) ، **والسادس** فى شطوط الهند والعجم (١٠٦ أبيات) ، **والسابع** فى شطوط الجُزرِ (١٨٣ بيتًا) ، **والثامن** فى معرفة الحسابات من بر العرب إلى بر الهند (٦٨ بيتًا) ، **والتاسع** فى قياس النجوم (٦٧ بيتًا) ، **والعاشر** فى معارف ملاحية فى البحر من إفريقيا إلى الصين (٧٠ بيتًا) ، أما الفصل **الحادى عشر** فهو تقويم لمعرفة الأوقات (١١٤ بيتًا) .

٣ - الأرجوزة السُّفَالِيَّةُ :

نسبةً إلى سُفَالَةَ ، وهى آخر مدينة تُعرف بأرض الزنج كما قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان (جـ ٣ ص ٢٥٣) ، وهذه الأرجوزة تمثّل الكتاب الثالث الكبير من مؤلفات أحمد بن ماجد إذ تقع فى أكثر من ٧٠٠ بيت ، بدأها قائلاً :

الحمد لله الذى أنشأ الملاَ
من عَدَمٍ – جَلّ تعالَى وعَلاَ

ويقول عن هذه الأرجوزة إنها خير معوان على السفر فى البحار الجنوبية ، وهى فى معرفة المجارى والقياسات من مليبار وكنكن وجوزرات والسند والأطواح إلى السيف الطويل ، ومنه إلى نواحى السواحل والزنج ، وأرض السُّفَال والقمر وجُزُرِه ، ونوادر علوم جميع ما فى تلك النواحى إلى آخر الأرض من الجنوب ، وذكر القياسات التى يعرف بها الربان الملاحة الفلكية ، ووصف نوادر تلك الطرق الملاحية ، وسكان الأرض وملوكها ومواسمها ، وهى أرجوزة جامعة ، تطرّق فيها لوصف الكون والسواحل والبلدان وثرواتها وعادات أهلها ، وفيها ذكر للإفرنج ، مما يدل على أنه كتبها فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وهذه الأرجوزة تضاف إلى مؤلفات العرب فى الكوزموغرافيا وهو علم الكون .

هذه هى الكتب الثلاثة الكبيرة والهامة – حسب ترتيبها – التى ألفها أحمد بن ماجد ، أما بقية مؤلفاته فلا تخرج – فى معظمها – عن نطاق المرشدات الملاحية ، التى يستعان بها لمعرفة طرق الملاحة بين سواحل معينة وموانئ مختلفة ، ومعظمها عبارة عن أراجيز بعضها يطول فيزيد على ٣٠٠ بيت ، وبعضها يقصر فلا يتعدى ١٣ بيتاً ، وبيانها كالتالى :

١ – الأرجوزة المُعَرَّبَةُ أى التى عرّبت الخليج البربرىّ وصممت قياساته – ١٧٨ بيتًا .

٢ – أرجوزة قِبلة الإسلام فى جميع الدنيا – ١٣٦ بيتًا .

٣ – أرجوزة بر العرب فى خليج فارس – ١٦٠ بيتًا .

٤ – أرجوزة في قسمة الجمة على أنجم بنات نعش بالتمام والكمال – ٦٨ بيتًا .

٥ – أرجوزة كنز المعالمة (الربابنة) وذخيرتهم فى علم المجهولات فى البحر والنجوم والبروج وأسمائها وأقطابها – ٧١ بيتًا .

٦ – أرجوزة فى التَّشْخَاتِ (الإبحار) لبر الهند وبر العرب – ٢٥٥ بيتًا .

٧ – أرجوزة الأبدال تقاس على ستة أوجه – ٦٤ بيتًا .

٨ – أرجوزة مخمَّسة فيها نصائح للربان – تقع فى صفحتين ونصف ، وهى آخر ما كتب إذ ألّفها سنة ٩٠٦ هـ .

٩ – أرجوزة فى عدد أشهر الروم وأيام كل شهر – ١٣ بيتًا .

١٠ – أرجوزة ضريبة الضرائب – ١٩٢ بيتًا .

١١ – أرجوزة فى معرفة المنازل وحقيقتها فى السماء وأشكالها وعددها على التمام والكمال ، وهذه الأرجوزة تُنسب إلى على بن أبى طالب كرّم الله وجهه ، وتقع فى ٤٧ بيتا وأولها :

الشَّرَطَيْنِ فَهْوَ رَأْسُ الحَمَلِ
إذا بَدَا في وقتـه المُعْتَدِلِ
ثلاثُ نَجْمَاتٍ كما خُطُّ الأَلِفْ
لكنه عن القَوَامِ مُنْحَرِفْ

١٢ – القصيدة المكية ، وهى من مكة لجدة لفرتك لكاليكوت ودابول وكتكن وجوزرات والأطواح وهرامز – ١٧٢ بيتاً .

١٣ – أرجوزة نادرة الأبدال فى الواقع وذبّان العَيُّوق – ٦٨ بيتاً .

١٤ – القصيدة البائية المسماة الذهبية – فى بعض فنون البحر ، وكتبها فى حكم سلطان المماليك البرجية الأشرف قايتباى – ١٩٣ بيتاً .

١٥ – الأرجوزة الفائقة فى قياس النجم سهيل – ٥٧ بيتاً .

١٦ – الأرجوزة البليغة وهى فى قياس السهيل والرامح – ٦٣ بيتاً .

١٧ – الأرجوزة المعلّقية وهى فى الإبحار من بر الهند إلى أقصى الشرق عند حدود الحرات وغيرها ، الشارفة على البحر المحيط ، الذى لا خلفه سوى جبل قاف ، حسب قول ابن ماجد .

١٨ – الأرجوزة التائية ، وهى فى الإبحار من جدة إلى عدن ، مع وصف طرق الملاحة والقياس .

١٩ – الأرجوزة الحادية ، وهى فى علم البحر – ١٥٥ بيتاً .

٢٠ – قصيدة فى علم البحر – ٣٣ بيتًا .

٢١ – الأرجوزة السَّبْعِيَّةُ ، وهى فى ذكر سبعة علوم من علوم البحار ٣٠٥ أبيات .

وقد ألف أحمد بن ماجد قصائد وأراجيز أخرى لم تصل إلينا ، لكنه ذكرها ، واستشهد بأبيات منها فى كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد ، كما ألف فصولاً فى موضوعات مختلفة كل فصل عبارة عن مؤلَّف قائم بذاته ، وإن كان لا يتعدى الصفحة الواحدة فى أغلب الأحيان وهى مليئة بالاصطلاحات الملاحية ، وبيانها كالتالى :

١ – فصل فى معرفة قياس المارزة .

٢ – فصل فى معرفة النتخة فى أرض جوزرات .

٣ – فصل فى معرفة البلدة فى أرض جوزرات .

٤ – فصل فى معرفة البلدة على جاه عشرة .

٥ – فصل فى معرفة المنتخ .

٦ – فصل فى معرفة البلدة إذا كان من داخل الباب (باب المندب) .

٧ – فصل فى معرفة جوزرات على جاه عشرة وربع من المارزة .

٨ – فصل فى معرفة دائرة القطب من روس بر العرب .

ويحتمل أن أحمد بن ماجد قد ألف هذه الفصول خلال إقامته

القصيرة في إحدى الموانئ هنا أو هناك ، كما يحتمل أنه ألف أراجيزه – التي تمثّل معظم مؤلفاته – خلال رحلاته الطويلة فى البحار المختلفة ، فالأشعار كانت تعلق بالذهن ، وكانت ملكة حفظها متوفرة لدى العرب ، أما استخدام الدواة والأقلام والأوراق فهو أمر يستلزم الإقامة فى البر فترة طويلة ، لذلك نرى أن أحمد بن ماجد قد ألف كتابه النثرى الذى يعتبر أكبر مؤلَّفٍ علميّ له (كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد) فى فترة امتدت إلى عدة شهور أثناء إقامته فى عُمَان سنة ١٤٧٥ م ، وقد عاد إليه مرتين بعد ذلك فى سنتى ١٤٧٨ م ، ١٤٩٠ م/ ٨٩٥ هـ .

ويعلن أحمد بن ماجد أن حبه كان للأفلاك والنجوم ، وأنه وجد العلم الحق فيما تحويه الكتب فيقول :

تركتُ اشتغالى بالمَهَا والجآذرِ
وَصُيِّرْتُ مُغْرًى بالنجوم الزواهرِ
قليلٌ من الناس الذين أراهمُ
عفافًا يرون الحقَّ خيرَ المآثرِ
يقولون لى : (كان الثلاثين ..) ولم أرَ
مُخَلّفَ عِلْمٍ مثلَ ما فى دفاترى

وهو يعتز بنفسه ويدرك قيمة علمه فيقول :

حصرتُ نجومَ الأُفْقِ فى البحرِ هاديًا
بهــا ســالكَ البحرِ المحيطِ الأعظمِ
وَأَلْقَوْا ســلاحَ الجهلِ لمّــا تحققوا
مَقَــالِيَ فى غُــرْبٍ وعُجْمٍ ودَيْلَمِ
بوادرُ عــلمِ البحــرِ عنى تَفَرَّعَتْ
وخيرُ صفاتِ البحرِ تصدرُ من فمى

وهو يقول لمن يجهلون قَدْرَهُ ، إنه سوف يأتى فى مستقبل الزمن من يعرف قدره تمام المعرفة فيقول :

فإن تجهلوا قَدْرِى – حَيَاتِى – فإنما
سيأتى رجــالٌ بعدكم يعرفوا قدرى

وجاء رجال أدركوا بالفعل قيمة عطاء أحمد بن ماجد وعرفوا قدره، فبحثوا عن تراثه العلمى الفريد الذى قدمه للبشرية ، كرائد لعلوم البحار ، وحققوا ما خلّفه من مؤلفات قيمة ، وقد بدأت عملية البحث عن تراثه العلمى على يد المستشرق الفرنسى جبريل فران Gabriel Ferrand الذى نشر كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد سنة ١٩٢١ مع ١٨ مؤلفًا آخر فى الملاحة الفلكية لشهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى النجدى ، ذاكرًا أن مخطوطات أحمد بن ماجد هى أهم وثيقة فى الجغرافيا الملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على

الإطلاق ، وتوالت مظاهر الاهتمام بالملاح العربى العبقرى من جانب المستشرقين ، تحقيقًا لمخطوطاته وبحثًا فى إنجازاته ، وشهادة بدوره الرائد فى علوم البحار ، وإظهارًا لتاريخه المجيد فى الملاحة البحرية ، من هؤلاء :

أغناطيوس كراتشكوفسكى ، وتيودور شوموفسكى الروسيان ، وليوبولد دى سوسير السويسرى ، وكارل بروكلمان الألمانى وجورج سارتون الأمريكى وغيرهم .

وفى الوقت الذى حصل فيه أحمد بن ماجد على شهرة عالمية ، لم يكن فى الدوريات العربية عنه غير مقالين :

أحدهما : نشر فى دمشق سنة ١٩٤٧ بقلم محمد ياسين الحموى .

والثانى : فى القاهرة سنة ١٩٥٧ بقلم حسن كامل الصيرفى .

ثم تركزت عليه الأضواء حين نشر الدكتور أنور عبد العليم كتابه (ابن ماجد الملاح) سنة ١٩٦٧ م ، ويرجع الفضل إليه فى تعريف القارئ العربى به ، ثم نشر كتاب (ابن ماجد أسد البحار) من تأليف رشدى صالح سنة ١٩٨١ فى طبعة شعبية حققت الانتشار لاسم أحمد بن ماجد ، وتوالت الإشارات إلى دوره الهام فى الحضارة الإنسانية وذلك من خلال بعض المقالات فى الدوريات ، وعدد من الفصول فى بعض الكتب ، أشادت بهذا الرائد العربى الذى غاب عن الدنيا

منذ أكثر من خمسة قرون ، إلا أن ثمار فكره وآثار عطائه مازالت ممتدة إلى اليوم ، تشهد بذلك ريادته لعلوم البحار فى العالم ، وتشهد بذلك البوصلة التى اخترعها ولم تزل مستخدمة إلى يومنا هذا ، فشهاب الدين أحمد بن ماجد ليس شخصًا مغمورًا ، لكنه واحد من مشاهير العرب .

* * *

الفهـــرس

رقم الإيداع	١٩٩٥ / ٣٣٩٩
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 4899 – 1

٧ / ٩٤ / ٢٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)